محنة العروبة في غزو الكويت (دراسة في الشعر الذي صدر في الغزو العراقي لدولة الكويت)

توفيق الفيل*

* حصل على الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة عين شمس عام ١٩٧٦ .
يعمل أستاذاً بكلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ـ جامعة قطر.

الملخص

يحتوي هذا البحث على تتبع جانب من الجوانب التي عبر عنها الشعراء في غزو القوات العراقية لدولة الكويت في الثاني من شهر أغسطس ١٩٩٠م. هذا الجانب هو ما أصاب الأمة العربية. لقد كان الحدث الذي ألم بهذه الأمة سابقة لم تحدث في التاريخ من قبل. وقد قُضي على كثير من الآمال التي راودت العرب في العصر الحديث.

وإذا كانت طموحات، وأماني العرب أن يجتمعوا على هدف واحد، وغاية واحدة، وأن يقيموا كياناً قوياً يستطيع التعامل مع التجمعات الكبرى، فإن الغزو العراقي الغاشم قد قضى على هذه الآمال، وأنهى هذه الطموحات. ومن ثم كانت ردة الفعل حوله قوية وعبر عنها شعراء العرب في كل أرجاء الوطن العربي.

لقد ذهب بعض الشعراء إلى القول بأن هذه الأمة أخذت تأكل نفسها، وتقتل أبناءها، وأنها قد صنعت من قوتها سيوفاً تقتل بها نفسها، وتقطع أوصالها.

وتساءل بعضهم عن صحة القول بأن أرضنا أرض الرسالات، ومهبط الوحي، فإذا كانت كذلك فلماذا ساد فيها الجهل، وتحكم في مصيرها القتلة والمغامرون، أولئك الذين لم يشعروا بالندم على فعلتهم.

إن المأساة التي حدثت لم تكن مأساة الكويت، أو العراق، بل كانت مأساة أمة عادت إلى عصر الجهالة والهمجية، وراح فيها الأخ يقتل أخاه، ويسلبه عرضه وماله وأمنه.

كما تساءل بعض الشعراء: كيف تحولت بغداد من عاصمة عظماء التاريخ من أمثال المعتصم والرشيد إلى وكر للتآمر والخيانة والإرهاب؟ وكيف أصبحت كئوس أبي نواس في يد سكانها من جماجم الأطفال، وخمره من دمائهم.

إن ماحدث جعل العروبة تحس بالعار والخجل، ودعت بعض أبنائها إلى أن يتوارى من تلك الحادثة النكراء، بل تمنى أن يخرج من جلده، وأن يبدل شكله ولغته، ويقطع أية رابطة تربطه بها. لقد صارت العروبة بعد الفعلة اللئيمة أضحوكة الدنيا كلها. وجعلتها في حيرة من أمرها، فقد انطفأت آمالها، وكأنه كتب عليها أن تظل في متاهات التاريخ.

لقد أضاع الجيل عمراً كاملاً في أحلام طائشة. فالعروبة لا تقال من عثرة إلا لتقع في أخرى ورجعت إلى زمن القبيلة ترسل ضغائنها، ولا تجتمع على شيء. إنها تسعى إلى الفرقة والشتات في وقت تسعى فيه الأمم إلى التكاتف والتعاون.

ويحدثنا الشعراء عن أن الأمة أصبحت تسير عكس التاريخ، فإذا كانت الأمم تحاول أن تظهر أمام غيرها في صورة حسنة، إذا بنا نكشف عن عيوبنا، ونظهر في صور تثير الخجل والاشمئزاز، ويحدث هذا كله على الرغم من وضوح الطريق. لقد تعرت الأمة، وأصبحت خارج السباق، وظهر وجهها القبيح. ولم يعد في طاقتها أن تخفي هذه العيوب وراء قبلات مصطنعة. لقد باع الأعراب عروبتهم بلا ثمن. وما ذلك إلا لأنهم قبلوا أن يكون فيهم مثل أولئك المعتدين.

تمهيد

هذه دراسة في قصائد بعض الشعراء كانت ردّ فعل للغزو العراقي لدولة الكويت في الثاني من أغسطس (آب) ١٩٩٠ م، ذلك الغزو الذي كان بكل المقاييس عملاً جباناً غادراً يستنكف منه كل صاحب مبدأ.

لقد كان النظام العراقي يعد لهذا العمل الجبان من زمن بعيد، وحاول أن يجمع حوله المثقفين لهذا اليوم، لكن النفوس الأبية وقفت أمام هذه العمل الخسيس وقفتها المشهودة التي نتج عنها فيما نتج ذلك الكم الهائل من قصائد الشعراء في معظم أنحاء المعمورة.

وتتناول هذه الدراسة جزئية واحدة جاءت عند عدد من الشعراء؛ إذ أن المقام لا يسمح بإحاطة كل جوانب الشعر الذي أسفرت عنه الكارثة لغزارته.

ومن المؤكد أنه توجد جوانب كثيرة: فنية وموضوعية، تحتاج إلى الدراسة التي تضعها في مكانها الصحيح من تاريخنا الأدبي، ففي هذا الشعر ما يمثل الصمود والتحدي على نحو ما نجد في شعر الكويتيين، ومنه ما يكشف حقيقة النظام العراقي، ومن يتربع على صدر العراقيين.

وقد تعددت جوانب الرؤية، كما تعددت طرق التناول، ولعلي في هذه الدراسة أسهم بجهد المقل في إلقاء الضوء على زاوية من زوايا هذا الإبداع المنوَّع.

والله أسأل أن يجعلني من الذين يحترمون الكلمة، ويعرفون لها قدسيتها وجلالها، كما أسأله العون، وسلامة القصد.

مقدمة

سيظل الشعر ينزع إلى مصدره الأول، ليستجيب له، ويعبر عنه، ومصدر الشعر الذي اشتق اسمه منه هو «الشعور»، ومهما حاولنا أن نخضع الشعر للعقل، ونكبله بأغلال الفكر، ونكرهه على التعبير عنه، يبقى الشعر استجابة للانفعال الذي يسيطر على نفس مبدعه، وقد يكون دون إرادة منه.

ولعل الناقد البصير يحس للوهلة الأولى بهذا النوع من الشعر الذي عبر عن نفس قائله، ونقل أحاسيسه بما يريد التعبير عنه، ويدرك الخلاف بينه وبين الشعر الذي خضع للفكرة، ووقع تحت سيطرة العقل. ومنذ القدم والنقاد يختلفون حول أي المنزعين الشعريين يمكن أن يقدم على الآخر، لكنهم رغم الخلاف لم يقلل واحد منهم من شأن العاطفة التي تسيطر على الشاعر؛ لأن هذه العاطفة تمثل روح الشعر وجوهره.. إنها الماء والرونق حسب تعبير القدامى من النقاد.

لقد كان الجاحظ أول من نبه إلى أهمية الشاعرية في الشعر[١]، من خلال نظريته التي وقف بها أمام التيار المغالي في قيمة المعنى، متجاهلاً الأمور التي يكون بها الشعر شعراً، ومن بينها أن يكون وليد طبع مفطور على قول الشعر يساعد صاحبه على أن يصدر عنه القول دون إرهاق أو تعنت أو افتعال، فالقول الذي يأتي نتيجة الافتعال والتصنع، هو نوع من النظم جاف لا ماء فيه ولا رونق.

ولعل هذه المقدمة القصيرة عن الشعر، ومقوماته تسلمنا إلى الموضوع الذي نعقد له هذه الصفحات كي تنظر في الشعر الذي صدر في محنة غزو الكويت. ذلك لأن الدارس لهذا الشعر يجد بين يديه ـ كمّاً ـ هائلاً من الشعر، بعضه يخضع للعقل، ويحاول أصحابه أن يفكروا في العبارة التي تمكنهم من التراجع، كما تمكنهم من الميل إلى التيار الآخر ـ إن قدر له أن يستمر ـ لكن الحقيقة التي لا يمكن إنكارها تكشف عن أن الجانب الأكبر من هذا الشعر تمليه عاطفة قوية، وشعور فياض.. ينسى صاحبه كل شيء إلا الحادث الذي يعبر عنه، إنه لا يفكر في النتائج التي تترتب على قوله، خيراً كانت أم شراً، بل هو يقذف شعره في وجه السفاح وزبانيته المنتشرين كالوباء في كل مكان، ينتظرون منه الإذن ليقتلوا ويخربوا، إنهم كما يقول (غازي القصيبي)، يرسلون كلماتهم صواعق، تبصق في وجه سفاح العراق، لا يخفونها، ولا يتسترون وراء حروفها، خوفاً من بطشه. يقول غازي القصيبي مخاطباً الشبيبة التي احتشدت ليوم الخلاص[٢]:

لا يستوي من راح ينظم حبره ... شعراً ومن نظم الدماء روائعا
عذرى، وفي الخمسين عذر للفتى ... أني وراءكم أسوق زوابعا
وأصك سفاح العراق بكلمة ... لم تتخذ خوف الحمام براقعا
بصقت عليه وزلزلته ومزقت ... عن وجهه ذاك القناع الخادعا

* * *

ولعل العرب لم يمتحنوا في عصرهم الحديث بمثل ما امتُحِنُوا به في تلك الضربة الآثمة التي وجهتها يد عربية للقلب العربي.. فلم يكن اعتداء العراق على الكويت من أمثال العدوان الذي يقع من دولة على دولة أخرى جارة لها، إذ الكويت والعراق لم يكونا من هذا الصنف من الدول، وإنما كان بينهما من صلات القربى، ووشائج الأرحام ما يجعل التفكير في مثل ما حدث ضرباً من الوهم أو الخيال، لكن ما كان يعده الناس من قبيل المستحيل ـ حتى بعد أن جيشت الجيوش، وأعدت الحراب، واستُنْفِرَ الجند ـ حدث في الثاني من أغسطس (آب) ١٩٩٠ م. ولقد أصيب العالم كله بالدهشة، وأُخِذَ بروعة الحدث وعنفه وشراسته، واستيقظ العرب في هذا اليوم على فاجعة حار فيها اللبيب.

وحين نفكر في هذا الأمر بعد أن سكنت ثورة العواطف، وتفتحت الأعين على آثار الجريمة التي تبعتها جرائم، نجد أن المعتدي كان يخطط لعدوانه منذ فترة طويلة. وأنه اعتد بالجانب الثقافي، وعرف له أثره، ومن ثم حاول أن يضم المثقفين العرب إلى مؤامرته، حتى يباركوا العدوان، ويؤيدوه.

ولتحقيق هذا الغرض.. جند الجموع من المثقفين ومن الذين يرتدون عباءة الثقافة، وأغدق عليهم من العطايا والهبات، فيما يسمى «بالمربد» ولا يعنينا ما كان يحدث إبان هذا التجمع، بقدر ما يعنينا ما ترتب عليه من النتائج التي قد يعدها بعض الناس سلبية، ونراها غير ذلك.. فحين حدث العدوان الآثم على الكويت صمتت أفواه كثيرة كانت تملأ الدنيا ضجيجاً، وتتغنى بحرية الإنسان وحقه في العيش آمناً، كما ملأت الآفاق صراخاً في القومية العربية، وحتمية الوحدة، والإخاء العربي.

ولئن كان كثير من الذين تلوثوا بـ «المربد» قد صمتوا، فإن أصواتاً أخرى رأت «الفارس» الذي غنّت له ليس إلا قاطع طريق مأجور، جاء ليئد الحلم العربي، حاضره ومستقبله.

لقد هبت هذه الأصوات بصورة تلقائية تتصدى لهذا الحدث الأليم، وترفضه، وتبرز آثامه وجرائمه.. وتعريه أمام العالم كله، وتكشف الزيف، وتزيل الأقنعة، وتضع أمام الأنظار الصورة البشعة لهذا النظام، ومن يتربع على قمته.

لكن ما الذي جعل كثيراً من الأصوات الأدبية في مشرق العالم العربي ومغربه تلتقي عند نقطة التصدي للعدوان على نحو ما جاء في الشعر الذي عبر عن هذه الفترة؟

قد يقال: إن ذلك الأمر كان لارتباط هؤلاء بالكويت.. وهذا صحيح؛ لأن الكويت ـ فعلاً ـ استقرت في وجدان أجيال من الأدباء من خلال هذا الزخم الثقافي الذي كانت تقدمه، حتى يوم المحنة الأليم، ليس يخفى على أحد أن الكويت كانت تعيش في عقل كل مثقف عربي، وإن لم تطأ قدمه أرض الكويت، بل إن ما قدمته الكويت من ثروة ثقافية قد تعدى العالم العربي إلى أماكن أخرى من العالم، لقد كانت الكويت نافذة أطل منها المثقف العربي على إبداع عمالقة المسرح العالمي، كما كانت منتدى يجمع بين الحداثة والأصالة، وبيئة صالحة تلتقي عندها كل الأفكار والاتجاهات، ومن ثم لا نعجب إذا وجدنا هذا الكم الهائل من الإبداع الذي يتناول القضية من جميع جوانبها، ولا يقف عند لون واحد من ألوان الثقافة.. بل كنا نجد فيه المقال، والقصيدة، والرواية، والقصة القصيرة وغيرها إلى آخر الألوان الأدبية.. وأغلب الظن أن الأدب الذي أبدع في محنة الغزو العراقي للكويت، سوف تتعدد فيه الرؤى، كما تتعدد فيه الدراسات.

لكننا حين ننظر إلى الشعر الذي عبر به الشعراء في شتى ارجاء الوطن العربي عن هذا الحادث الجلل، نجده يذهب مذاهب شتى.. ففيه ما يتوجه إلى رأس الفساد الذي خطط ودبر ونفذ، حيث يصوره بصور مختلفة، فتارة هو «جزار» على نحو ما نجد في قصيدة أحمد السقاف التي نظمها في الفدائية الكويتية «أسرار»:

وقَفَتْ بوجه المعتدين بطولة شماء حار لبأسها الجزار

وتارة هو «ظالم» «غدار»، يشهد العالم كله على غدره وظلمه.. وهو «منافق» يمدح الكويت، ويشيد بمآثر أهلها.. لكنه يجازي أهلها جزاء (سنمار)، وإذا الجميل الذي يرده إليها هو «دمار» حاضرها ومستقبلها، ومجازر يرتكبها في أبنائها، يقول السقاف في القصيدة السابقة[٣]:

ومشت على الدرب العظيم أوانس لمصيرهن يطأطيء الإكبار
هن اللواتي قد نهضن لظالم الكون يشهد أنه غدار
مدح الكويت مردداً إحسانها فإذا الجزاء مجازر ودمار
وإذا النفاق مشمر أردانه إن النفاق حبيبه «الدولار»

وتارة نجد المعتدي «قابيل»، ذلك الذي قتل أخاه غدراً.. إلا أن الفرق بين المعتدي وقابيل أن قابيل بعد أن فعل فعلته، أصبح من النادمين، كما أنه حاول أن يواري سوأة أخيه. ولم يفعل شيئاً من ذلك صدام وجنوده، فقد مثلوا بالأبرياء، وظهر للملأ في كل مكان ما في نفوسهم من شهوة عارمة للقتل والدماء. يقول أحمد الصديقي[٤]:

قابيل ماذا؟ هل قتلت أخاك غدراً لا تبالي
من أجل ماذا أيها المغرور، يا رأس الضلال
وعلام تهدم ما بنيت علام تفقد كل غال
لا لن تراني مثلما ترجو رهين الاحتلال

* * *

وربما يتساءل المرء.. ماذا يقصد أحمد الصديقي بالبيت الثالث من هذه الأبيات؟ إننا نجده يتساءل عن السبب الذي يجعل هذا المجنون رأس الضلال يهدم ما بناه؟ لعل هذا يكشف ما عاشت عليه الأمة من الوهم حين ـ ظنت ـ تحت تأثير الدعاية مدفوعة الأجر، أن ذلك المغرور فيه أمل لأمته، وأن من ورائه خيراً يرتجى. فقد كشفت واقعة الكويت حقيقة هذا السفاح، وعرّته أمام الملأ أجمعين، بل إن الشاعر نفسه يعبر عن هذا حين يقول:

كنا نظنك درع أمتنا وذخرَ الأمنياتْ

ولكم بذلنا يوم كنت تخوض معركة الحياةْ
ووراء جيشك جيشنا يحمي ظهور المكرماتْ

وإذا كانت قطاعات كثيرة من الأمة قد وقعت في حبائل الوهم الذي قذفتها أجهزة الإعلام فيه، فإن أصواتاً قليلة كانت تستشعر الخسة والغدر، وترى في هذا المغرور نكبة من النكبات التي منيت بها أمتنا على مدى تاريخها الحديث.. فكاتب هذه السطور.. يقول في إحدى قصائده: أن الإعلام الأحمق هو الذي رسم صورة لهذا المغرور عكس الواقع، فصور هزيمته في حربه مع ايران انتصاراً، وصور عدوانه على هذه الدولة المسلمة نوعاً من الدفاع عن البوابة الشرقية للأمة. وهذا الإعلام لم يذكر جرائم «هولاكو» ضد الأطفال العراقيين من الأكراد، ولو كان هذا الإعلام ذكر الحقيقة، وكشف البهتان والزيف، لما وصلت الحال بهذا المعتدي إلى قتل الأبرياء من الكويتيين. يقول كاتب هذه السطور[٥]:

لو كان الإعلام الأحمق قدم للناس الصدق
قدم عدد القتلى في ايران
وكردستان
لو قال لهم ـ صدقاً ـ من بدأ الحربْ
من ألقى في الحرب الغاز السام
من حصد الأطفال بغاز الخردل
من كبّل شعباً عربياً بالأغلال
من قتل العلماء
ولقّبَ شيخا بالدجّال
لو فعلوا...
ما كان المغرور تجبر
لو فعلوا، ما كان الهرّ تنمّر

* * *

ولا تنتهي الأوصاف، والألقاب التي وصف بها الشعراء هذا الغادر.. فهو هولاكو عند بعضهم، ومن ورائه التتار جاؤوا يخربون ويقتلون ويحرقون.. وهو الحجاج في قسوته وجبروته وتمثيله بالقتلى من المسلمين عند بعضهم الآخر. ويطول بنا المقام لو رحنا نتتبع الأوصاف التي أطلقها الشعراء على هذا المعتدي، وربما صرفنا هذا التتبع عن الأساس الذي خصصنا له هذه السطور، وهو الانتكاسة التي أصيبت بها الأمة من خلال الغزو الآثم لدولة الكويت.

لقد عاشت الأمة منذ ضربت أمانيها في الوحدة تحلم باليوم الذي يجتمع فيه

الشمل، وتلتئم الجراح وتتوحد الغايات والأهداف في عالم تسعى فيه الأمم إلى التكتل والامتزاج.. ولقد كانت الآمال تحدو الجميع في حاضر يخلو من التنافس والصراعات.. لكن العدوان العراقي على الكويت واحتلاله لهذه الدولة العربية الآمنة، قضى على كل الآمال، وأصاب العرب جميعاً في مقتل. إن حلم الوحدة كان يراود أحلام الجميع.. لكن عصابة الشر نقضت الغزل. يقول كاتب هذه السطور[٦]:

يا أيها الحلم هل راودت مقلتنا ... أنْ ما تفرق فينا سوف يكتمل
وما درينا بأن الشر يرصدنا ... وحولنا عصبة للشر تبتهل

ويعبر عن مثل هذا المعنى أحمد الصديقي حين يخاطب المعتدي قائلاً:

مزّقت شملاكم حرصنا أن يؤلفه الوئام
وجراحنا ملء القلوب وما لها بعد التئام
والصحوة الغراء كم طعنت وبددها انقسام
وينال منا ما يشاء خصوم أمتنا اللئام

* * *

وفي قصيدة «ثر يا عراق» لأحمد بن عبد الله السالم[٧] يبين الشاعر أن ما فعله صدام جعل كل عربي يهيم في واد غير الوادي الذي يهيم فيه أخوه، وأن العربي قد أصبح يثب على العربي، وهكذا بتأثير تلك الفعلة الشنعاء أصبح العرب فريقين: فريقاً يئن من الآلام والأحزان، وآخر ينتشي على هذه الآلام التي سببها لأخيه يقول:

قلنا له: كيف خنت العهد في عرب ... فقال «صدام»: كنا في الهوى عربا
واليوم كل له واد يهيم به ... إن سره أو على جيرانه وثبا
تفرق العرب أصنافاً مصنفة ... هذا يئن وهذا ينتشي طربا
هل نشتكي فرقة بانت بوادرها ... والكل منا لبيب يعرف السببا

والعصبة التي تحكم العراق هم أسباب فرقة العرب، وهم الذين نشروا في بلادهم الفزع والرعب، لقد أشعلوا النار في خيام العرب بحقدهم وغدرهم، وقطعوا حبال المودة وصلة الأرحام. ففي قصيدة أحمد اللهيب[٨] التي يصور فيها حالة العراق قبل غيره من بلاد العرب، ويبين كيف صارت الأمور في هذا القطر العربي في يد أفاك كتم صوت الجماهير، وحفر لها قبرها، وقهر هذا الشعب حتى أصبح يُدْمِنُ الفقر والتهديد والنُّذُر.. ولا يخرج من خندق حرب إلا ليقيم في خندق آخر يقول:

يا عصبة أنتمُ أسباب فرقتنا ... أذكيتمُ الرعب والارهاب والشررا

أشعلتمُ في خيام العرب حقدكم حتى تضرم حبل الود واستعرا
فما حضرتم لأمر بات يجمعكم إلا تمزق هذا الجمع وانحسرا
وما تفرقتمُ من بعد جمعكمُ إلا سمعنا غثاء منكم صدرا

ويلفت النظر في قصيدة اللهيب ما يشير إليه من نهج النظام العراقي الذي سار عليه، وهو تخريب كل اجتماع عربي، واستحداث لغة متدنية في الحوار، فقد أصبح حضور النظام العراقي لأي اجتماع عربي مصدر تخريب له، وبثاً للفرقة بين أعضائه، ولهذا يناشد الشاعر هذا النظام عدم حضور هذه الاجتماعات، ويزجي لهم الشكر إن هم فعلوا ذلك. يقول:

لا تحضروا قمة رحماكمُ أبداً ونحن أول من يزجي لكم شكرا
صرتم بلاءً فما يرجوكمُ أحد وجاركم من فحيح الخوف قد سهرا

ويكاد الشعراء الذين تناولوا الغزو الآثم يلتقون حول تصوير هذه المأساة بأنها فرقت العرب، وأعادتهم إلى عصور الضياع.. فالشاعر «إبراهيم عيسى» يعبر مثل كثيرين عن حاكم العراق ملقباً إياه بالحجاج، في قسوته وتجبره وقتله للأبرياء، وعدوانه على كل مقدس، وتمثيله بالقتلى، يقول:

لما اعتلى الحجاج منبره وقد وضع العمامهْ
حجاج هذا العصر في بغداد مغرور وفاجر

وهو يتخذ مما فعل هذا المغرور الفاجر دليلاً على ما ألمّ بالعروبة، وما أصابها من الضياع والتخلف، فالمحنة التي صنعها لم تكن محنة الكويت وحدها، تلك التي خربها الباغي، وقتّل شعبها، كما لم تكن محنة العراق الذي عاث فيه فساداً، وحوّله إلى أطلال وخرائب، وقدم أبناءه قرابين على مذبح طيشه وغروره وأحلامه المريضة. وتسبب في أن يعود إلى الوراء مئات السنين، بل المحنة كانت أعظم من ذلك وأشد... إنها محنة الأمة كلها التي أعادها إلى عصور الجاهلية والهمجية ووأد أحلامها في التقدم ومسايرة العصر[٩]:

مأساتنا وجراحنا ليست كويتاً أو عراق
فعروبتي صارت جحيماً بالتخلف لا يطاق
لما قتلت شموخنا العربي وانفرط الوفاق

واتخاذ الحجاج رمزاً لهذا المعتدي، وتكرار هذا عند عدد من الشعراء يدعونا إلى ضرورة الإشارة إلى أن الحجاج يختلف عن هذا المعتدي بما له من أعمال أخرى تعد من فضائله، ولعل أهمها أنه قد استطاع أن يروض الخارجين، وأن يقضي على الثورات التي ناوأت الدولة التي يعد أحد رجالها. لكن ما فعله حجاج العصر قد جعل

العروبة جحيماً لا يطاق، ففعلته قتلت الكبرياء والشموخ العربي، وقضت على الآمال التي كانت تراود الأمة في تخطي جراحات الماضي، تلك التي خلقها حين أكره الأمة على القطيعة والشقاق، ومكّن العدو من ناصيتها خلال ما يزيد على عقد من الزمان.

ويزداد الحس الوطني والقومي عند عدد من الشعراء عاشوا أمل العروبة في الوحدة، وإذا بهم يصدمون في آمالهم، وفي كل القيم التي تربوا عليها، فالكل يشعر بالغربة في وطنه، والأخ يخاف من أخيه ويرتاب. وقد غرس زمان الغدر في أعماق الناس هذه الأمور التي لم تكن موجودة من قبل.. كانت شيمة العربي الوفاء، فلم يغدر العربي يوماً بالصديق، واليوم تبدل الحال، و «فاروق جويدة» يصور هذه المحنة، في خطابه الشعري الذي يوجهه إلى بغداد[١٠]:

بغداد هل لم يزل للشعر أحباب
شعب يموت.. وما للموت أسباب
نشتاق عمراً على عينيك جمّعنا
الدهر يشدو وهمس الشعر «سياب»
يا واحة الشعر حزني صار يسبقني
هذا زمان الأسى فالكل أغراب
يا دار ليلي زمان الغدر علمنا
بالخوف نحيا وفي الأحباب نرتاب
قالوا قديماً وفاء العهد شيمتنا
وقد غدرنا فهل للغدر أرباب

وتتعمق المحنة أكثر فأكثر عند «فاروق جويدة»، وتظهر بوضوح في شعره العاطفة الحزينة الأسيانة التي مزقتها المحنة، لقد استأسدنا على أنفسنا وقتلنا أبناءنا وإخواننا، وكنا فرساناً نغمد الرماح في صدر أبناء الكويت، لكننا عند مقابلة العدو نصبح أذناباً، والشاعر يعيد إلينا القول القديم[١١]:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة خرقاء تنفر من صفير الصافر

ولعل المصادفة وحدها هي التي جمعت بين هذا القول للخارجية التي قالت «للحجاج الثقفي»، والأقوال التي يسوقها شاعرنا للحجاج التكريتي:

صرنا أسوداً نبيع الموت في سفه أسد على الأهل للأغراب أذنابُ
دم الكويت على عينيك أرقني فهل جزاء الوفا قتل وإرهابُ؟

إن الذي يقتل أطفال الكويت، ويغتال حاضرها، ويريد أن يقضي على مستقبلها هو هذا الذي كان شقيقاً، وضعته في حنايا القلب لتحفظه وتحميه، لكنه كان شراً وبلاءً:

هذا أخي يستبيح الفجر في وطني ... أحلامنا البكر في كفيه أسلاب
هذا أخي في حنايا القلب يسكنني ... فكيف تسكن وسط القلب أنياب
دم الكويت على كفيك يسألني ... أين الطريق؟ وهل للصبح أبواب؟
دم الكويت أمام الله يسألنا ... أطفالهم في لهيب الموت قد شابوا

وإذا كان فاروق جويدة حزيناً على الكويت بسبب ما أصابها على يد من يحسبون أشقاء، فإنّ حزنه لا يقل عن ذلك على أمته التي راحت ضحية في ساحة الإفك، وقد ضاعت الأعمار سفهاً في أوطان ملك زمامها الأفاكون، وأضاعوا دماء أبنائها بلا ثمن، وأشعلوا لهيب الحزن في القلوب.

إن الأحزاب المشبوهة التي ملأت عقول الناس بالأوهام انتهى بها الأمر إلى تفريق الأمة وتمزيق أوصالها وهي التي رفعت شعار الوحدة والحرية.. فإذا بها تغتال الوحدة، وتئد الحرية:

حزني على أمة أدمت فوارسها ... في ساحة الإفك سهم الغدر غلاب
أوطاننا ضيعت أعمارنا سفهاً ... للزيف أهل ـ أمام الحق أغراب
أين الدماء التي بِيْعت بلا ثمن ... وأشعلت بعدها أحزان مَن غابوا
إنّا بنينا من البهتان أضرحة ... وشردتنا بأرض الله أحزاب

* * *

إن مصير الأمة، ومستقبلها المظلم من الأمور التي تؤرق فاروق جويدة، ومأساة الكويت نكأت الجرح، وقضت على الأمل، فالصبح الذي ظل ينتظره قد انتحر، والحلم الذي راود الأجفان قضت عليه المحنة واندثر، وهو يرجع كل المصائب التي ألمت بالأمة إلى الجهل الذي حكمها، فالجهل حين يسود لا ينقذ الأرضَ خيطُ النور، والحِمَىٰ لن يحميه أولئك الذين غدروا به، ففي قصيدته «كانت لنا أوطان»[١٢]، يطالعنا بما يدل على أنه لا أمل:

يا عاشق الصبح وجه الشمس ينشطر ... وأنجم العمر خلف الأفق تنتحر

والعمر قد ضاع في الأحلام والآلام.. وكلما شب في النفس حلم كبا واندثر، وضاع فلم يعد له أثر:

نهفو إلى الحلم يحبو في جوارحنا ... حتى إذا شب يكبو ثم يندثرُ
عمر من الحزن قد ضاعت ملامحه ... وشردته المنى واليأس والضجر
إن يحكم الجهل أرضاً كيف ينقذها ... خيطٌ من النور وسط الليل ينحسر

لن يطلع الفجر يوماً من حناجرنا ولن يصون الحمى مَنْ بالحمى غدروا
لن يكسر القيد مَنْ لانت عزائمه ولن ينال العلا مَنْ شلّه الحذر

وكما هو واضح يرى فاروق جويدة أن الحاضر الأليم لن يتغير إلا بأمرين.. الأول أمة قادرة على التغيير.. عزائمها صلبة، وإرادتها قوية.. لا يقف أمام إرادتها الوثابة شيء.. ولا تحذر رد فعل القوة المتجبرة.. والأمر الثاني أن تتغير تلك الواجهات التي خانت الأمة وغدرت بأمانيها، فلن يصون الأمة من غدروا بها، ولن يتصدى للظلم أصحاب العزائم الرخوة، ولن يصل إلى المعالي من شل ارادته الحذر.

ويبدو أن الشاعر قد يئس ـ أو كاد ـ من هذه الأمة التي طالت استكانتها، وأوشك أن يفض يده، ويستسلم للمأساة.. لقد ماتت عزائم الأمة، وأثقلت كاهلها العلل والأوجاع، وهي بذلك لم تعد قادرة على التخلص من محنتها، والقصاص من قاتليها وجلاديها. يقول في قصيدة «مرثية ما قبل الغروب»[١٣]:

في أي شيء أمام الله قد عدلوا تاريخنا القتل والإرهاب والدجل
من ألف عام أرى الجلاد يتبعنا في موكب القهر ضاع الحلم والأجل
نبكي على أمة ماتت عزائمها وفوق أشلائها تَسَّاقَطُ العِلَلُ
هل ينفع الدمع بعد اليوم في وطن من حرقة الدمع ما عادت له مقل
في جرحنا الملح.. هل يَشْفَي لنا بدنٌ وكيف بالملح جرحُ المرءِ يَنْدَمِلُ
أرض توارت وأمجاد لنا اندثرت وأنجم عن سماء العمر ترتحل

إن الشاعر يتذكر أمجاد الماضي، كما يتذكر الرجال الذين أقاموا هذه الأمجاد، وشيدوا صروحها، لقد كانوا مدفوعين بعقيدة راسخة تمتليء بها نفوسهم، وكانوا كما يقول ـ وجذوة من ضمير الحق تشتعل ـ ولكن حين مضوا، من يحافظ على تلك الأمجاد؟ ويدفع عنها عدوان العادين؟ لقد أصبح في ساحة الملك أصنام، وعصابة عاجزة.. وهكذا ضاعت قرطبة، وتبعتها القدس، وبقينا نبكي على مجدنا الغابر، وعزنا الذي ضاع.. لقد أصبحنا أمة ذليلة خانعة تسلم رأسها لقاتلها دون مقاومة..

إن الشاعر يعقد مقارنة بين أولئك الرجال الذين ذهبوا، وهؤلاء الذين يشهرون السيف، بل يغمدونه في صدر أهلهم وذويهم، ومقدساتهم تلقى الهوان في أسرها عند عدو أثيم. يقول في مقارنته بين أمسنا ويومنا:

كانوا رجالاً وكانوا للورى قبساً وجذوة من ضمير الحق تشتعل
لم يبق شيء لنا من بعد ما غربت شمس الرجال تساوى اللص والبطل

لم يبق شيء لنا من بعد ما سقطت ... كل القلاع تساوى السفح والجبل
في ساحة الملْك أصنام مزركشة ... عصابة من رماد الصبح تكتحل
وأمة في ضلال القهر قد ركعت ... محنية الرأس للسيّاف تمتثل

ويتساءل فاروق جويدة عن صدق المقولة التي تُردد أننا أرض الرسالات، ومهبط الوحي، وأن أرضنا أرض مباركة، فيها هدى السماء.. فإذا كانت أرضنا كذلك لماذا انتشر فيها القهر، وأصبحت تغص ببحار الدم، حتى لقد أصبحت المشانق تغص وتشرق بمن قتلوا؟ أكلّ ما يقال كذب وبهتان؟ يشهد عليه الواقع الأليم وتدينه الممارسات الحمقاء؟؟ إننا نرى في الساحة ألواناً من الحكام بعضهم باع أمته، وتآمر على تاريخها وبعضهم جبان لا تظهر قوته إلا على أهله وذويه.. وهذا أو ذاك يتعبد في محراب الشيطان ويدور في فلكه.. إن اليوم الذي مزق فيه أمثال هؤلاء عرض أمتهم هو اليوم الذي لفهم ولفها ثوب العار والخزي، وهو اليوم الذي أصبحت أرضهم لا تنبت غير الزيف والبهتان.. وهو اليوم الذي عُمّيَتْ على الأمة فيه الأمور، فلم يعد الناس فيها يفرقون بين الْعِنّينِ والرجل، اللص والبطل:

في أي شيء أمام الله قد عدلوا ... وكلهم كاذب قالوا وما فعلوا
هذا جبان وهذا باع أمته ... وكلهم في حِمَىٰ الشيطان يبتهل
من يوم أن مزقوا أعراض أمتهم ... وثوبها الخزي والبهتان والزلل
عار على الأرض كيف الرجس ضاجعها ... كيف استوى عندها الْعِنّينُ والرَّجُلُ
يا وصمة العار هزّي جزع نخلتنا ... يستّاقط القهر والإرهاب والدجل
ضاعت شعوب.. وزالت قبلنا دول ... وعصبة الظلم لا تعلو بها دول

* * *

ولا شك أن فاروق جويدة يحركه في شعره الذي نظمه في محنة الكويت شعور قوي، وهو يجسد المأساة التي أصابت الأمة في أولئك الذين وثبوا على السلطة وهم إما جبان، وإما ظالم، وقد تجبروا في الأرض وسعوا فيها بالفساد، ونشروا الخوف في الضمائر والأفئدة، وحشوا رؤوس شعوبهم بالضلال والبهتان والأكاذيب.. وأمم يمسك بأعنتها نفر من هؤلاء تكون نهايتها محتومة وشعوبها عشش القهر في نخاعها لا يمكن أن تكون قادرة على مجابهة الأخطار التي تتهددها، إننا ـ في نظر الشاعر ـ أمة لم تحسن قراءة التاريخ، ولم تستطع أن تضع يدها على الأسباب الحقيقية التي تحفظ على الأمم وجودها.. وعلى الرغم مما في أيدينا من تراث حضاري لم نقرأ من تاريخنا إلا الصفحات الدامية، تلك التي ساد فيها الجبابرة

والطغاة ونشروا الرعب في الأرض، وكانوا بحق صفحات تنضح بالخزي والعار، ويطول بنا الأمر إذا حاولنا استقصاء ما صوره فاروق جويدة في هذه المحنة، وحسبنا أن نقول: إن الانفعال فيها قوي.. وهو انفعال مَنْ هزته المحنة بعنف، وسيطرت على كل حواسه ومشاعره، وهو قد حمل على الأمة بعنف، وصورها أمة ميتة العزيمة، يمتلىء جسمها بالعلل والأوجاع، وينفض يده منها على نحو ما سبقت الإشارة إليه، لكن يمكننا أن نقول في اطمئنان إن هذه الروح اليائسة من الأمة ليست الكلمة الأخيرة عند شاعرها، نحن على يقين من أنه بهذا القول يحشد قوتها، ويريد لها أن تكسر أغلالها وقيودها، وتثور على جلاديها وسارقي الفجر منها.. إنها صرخات من الشاعر على نحو ما صور في شعره ـ مدفوعاً ـ كما قلنا بحب جارف لهذه الأمة، وخوف شديد على مستقبلها وحاضرها، فإن الشاعر سيعود مرة أخرى ليقدح في هذه الأمة زناد النضال والكفاح، ويثير في عقولها الوعي الصادق الصحيح، ويحصنها من اختراق الأفاقين الذين يبيعون لها الأوهام، وينسجون لها الأحلام الوردية، ويلحون عليها صباح مساء بأنهم مبعوثو العناية الإلهية، وعلى أيديهم سوف يكون الخلاص.. إن على الأمة أن تعي حركة الحياة من حولها، وتنفض عن كاهلها ثياب القهر، وتكسر الأغلال التي تحول بينها وبين اللحاق بالعصر الذي أصبحت فيه الشعوب صاحبة إرادتها بعد أن تخلصت من عبودية الفرد.

وإذا كان فاروق جويدة لا يصدق أن غدنا آت.. وأن الليل سوف يرحل، ونهاية القصة الدامية سوف يسدل الستار عليها، فإننا نقول رداً على قوله:

من ذا يصدق أن الصبح موعدنا وكيف يأتي وقد ضاقت به السبل

إن الصبح آت.. ولن تعيش الأمة أبداً وراء خداع الأفاكين والمغامرين، والمتآمرين الذين وُضِعُوا في طريقها ليعوقوا حركتها حتى تظل أسيرة الضعف والهوان.

ومحنة الكويت يحتشد لها غازي القصيبي، وهو يحس بالخجل مما حدث، ويبين كيف عقد الحادث الجلل لسانه، فلم يستطع أن يقول شعراً، ويتساءل أليست هذه بغداد مدينة الرشيد التي حركت قيثارة الشعر في كل العصور؟ كيف أصبح ينكرها، بل كيف أصبحت مدينة الرشيد تنكر نفسها، أهذه بغداد التي طارحها هواه، وغنتها قصائده، وتهادت إليها كلمات الغزل في شعره، أهذه بغداد التي صدح فيها الطائي، وناضل ابن حنبل؟ أسئلة كثيرة يطرحها غازي القصيبي، تبدأ بهذا الاستفهام التعجبي: أهذه أنت يا بغداد؟ حيث يجعله عنواناً لقصيدته التي يبدأها بقوله[١٤]:

سترت وجهي يا بغداد من خجلي وصحت قل يا فمي شعراً فلم يقلِ
وقلت: بغداد هذي! كيف تنكرها ألم تكن هي وحي الحب والغزل
ألم تكن في جبين العمر ملحمة ألم تكن هي شوق الفارس البطل

ألست تذكر قمراء بدجلتها تطارح النهر ما يرضاه من قبل
أين القصائد غراء مجنحة عن الظبا والظبي واليأس والأمل
فأعول الشعر يا بغداد في قلمي وأنشد الدمع يا بغداد في مقلي

* * *

ولا تقف تساؤلات القصيبي عند ذلك، فأسئلته كثيرة.. إنه يسأل عن الرشيد، والمأمون، والنواسي، والسياب.. وأسئلته هذه أسئلة عن دور بغداد في الماضي والحاضر كيف كانت في التاريخ عاصمة لعظماء الرجال الذين بهروا العالم بحضارة العرب والإسلام وانفتحوا على الفكر الإنساني يتغذون عليه ويتمثلونه، ويرسلونه إلى الإنسانية كلها، وكيف أصبحت عاصمة للصوص وقطّاع الطرق.

كيف كانت بغداد كرمة للحسن بن هاني، يقف على حاناتها، ويتغنى بخمرها، ويشربها في كؤوسه المزركشة، ثم كيف أصبحت خمر ابن هاني دماً يحتسيه حكام بغداد الجدد، وكيف أصبحت جماجم أبناء العرب كؤوساً لهولاكو وزمرته:

بغداد ويحك.. ما بال الرشيد غدا لصا جحافله من قاطعي السبل
وخبريني عن المأمون كيف سرى في الليل يغتصب الجارات بالحيل
وأين معتصمٌ كنا نؤمله فجاء يشطبنا من زمرة الدول

وحين يفرغ من السؤال عن عظماء القادة، وكيف آل أمرهم إلى هذه المِسَخ الزرية ينتقل إلى الفن والشعر، ويحدثنا عن النواسي الذي كان ولعاً بالخمر يعشقها، ولا يرضى بها بدلاً.. ويتنازل عن كل شيء في سبيلها.. يتحول إلى ذئب تسكره دماء الأطفال الرضع، فيعبّ فيها، ويلغُ دون وازع من ضمير، أو رادع من شرف:

ما للنواسيّ يا بغداد يسكره دم الرضيع فيحسوه بلا كلل

أما الطائي الذي يصوغ أناشيد النصر، ويتغنى بأمجاد الفاتحين العظام، ويحول الشعر إلى راجمات للعدو، ويثور على المعوقين والمرجفين بقوله:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجدّ واللعب

هذا الطائي تمسخه أفاعيل القتلة فيروح ينشدهم بما يناسب أفعالهم:

وما لطائيّك الصداح ينشدنا الغدر أصدق أنباء عن الرجل

إن أسئلة الشاعر التي يرددها على لسان الكويت تحمل التعجب والاستنكار في آن من هذا التغير الذي أصاب العراق كله، وجرّ الأمة معه إلى قاع سحيق. إن الكويت تصرخ في بغداد حتى تجيبها عن هذه التساؤلات التي لم تعد تجد لها جواباً، بل إن

هذه الأسئلة الحارة لم تكن من الكويت وحدها، وإنما كانت من الخليج كله:

ردّي عليّ سؤال الجرح كيف غدت ... تلك المحبة حقداً خائن الأسل؟
أنا الكويت التي جادت بمهجتها ... وهي الصغيرة لم تدبر من الوجل
أنا الرياض التي أعطتك ناظرها ... يا للعطاء! وما منت ولم تسل
أنا الخليج الذي أهداك أضلعه ... وقال: نصرك يا بغداد أو أجلي

* * *

إن غازي القصيبي يتابع المحنة يوماً بيوم، وكأنه يسجل أحداثها، كما أنه يفاخر بانتسابه إلى هذه البيد التي أكسبته صلابتها وقوتها، وهو ابن هذه الخيام التي قاست ما قاست، وهو ابن كثبان الرمال، وأمواج البحر الهادرة، وابن القلاع المبحرة فوق أمواجه، ومن خلال هذه الأمور يؤكد اصراره على الخلاص، وخلع أردية الظلام التي نشرها أولئك المجرمون بغدرهم ولؤمهم.

إن القصيبي يعتز بماضيه القاسي، كما يعتز بحاضره، اعتزازه بالرموز العظيمة التي حفلت بها أرضه، يقول[١٥]:

أنا طفل هذي البيد لوني لونها ... قدماي من جمر، ووجهي أغبر
أنا طفل هاتيك الخيام تمزقت ... جوعاً وتورق بالعطاء وتثمر
أنا طفل كثبان الرمال أخالني ... من شوكها تدمي عليه الأعصر
وأنا ابن هذا البحر يصخب موجه ... في أضلعي، ويغيب فيّ ويبحر
وأنا ابن هذا القاع.. فيّ محاره ... ولدت أهازيجي فكان الجوهر
ما زلت في ماء الخليج مسافراً ... كالمدّ ـ أو كالجزر ـ شعراً يهدر

* * *

وعلى الرغم من عكوف الشاعر طويلاً في محيط الخليج، والكويت باعتبارها بؤرة الصراع، والمكان الذي امتحنت فيه العروبة بقيمها وتقاليدها.. وذبحت فيه مفاخرها وتطلعاتها. على الرغم من هذا يعرج في أوقات كثيرة على الأمة، يشير إلى ما أصابها من جراء هذا الغزو الأليم.. إنه يخاطب المعتدي ليكشف له أن الدم العربي الذي أراقه سوف يبقى خزياً له وعاراً لن تطهره مياه الفرات.. وأن فعلته الشنعاء اشمأزت منها العروبة، وأن التاريخ العربي الشريف ليبرأ منه، ويتقزز من انتسابه إليه. يقول في قصيدته التي عنوانها «ونحن فهد»[١٦]:

دم العربي فوق يديك خزى ... وإن صُبَّ الفراتُ عليه يبدو

تجهمت العروبة واشمأزت وضَجَّ نزارُ وانتفضت مَعَدُّ
تَغُضُّ القادسيةُ منك طرفاً يشيح بوجهه في الغيب سعد
ويبرأ من جحودك كل حر وحتى العبد يأنف منك عبد
وتزعم أنك القرشيُّ جدًّا خسِئْتَ فما لِهَذَا العارِ جَدُّ

وإذا كان غازي القصيبي يعاتب «بغداد» ويستحثها على الثأر، فإن الأمر يختلف عند أحمد غراب، لأن الأخير يرى بغداد شيئاً مختلفاً، فمنذ الحجاج ركعت للذل، باعت نخوتها، وأرضعت ثدييها للصوص والجلادين، يقول في قصيدته «نقوش على جدار نكبة الكويت»[١٧]:

لن أشتكيك لبغداد فقد كسرت قنديلها وانزوت في كهف (عشتار)
تبيح مرفأ ثدييها لطاغية كَفَّاهُ مَجْرَى غَدِيرٍ للدم الجاري
بغداد عَوَّدَها الحجاجُ من زمنٍ ألا تَذُوبَ هَوىً إلَّا لِجَزَّارِ

* * *

وأحمد غراب من الشعراء الذين تتجسد محنة العروبة في أشعارهم، فمنذ الأيام الأولى، وعلى التحديد في الرابع من شهر أغسطس ينظم قصيدة طويلة يدين فيها الغزو، ويحدد موقفه منه، يختار لها العنوان السابق، يقول فيها:

علمت من موقد الأحزان أشعاري فاخضلت النار في شدوى وأوتاري

وفيها يخاطب المعتدي بقوله:

قابيل والأغنيات السّود في شفتي يحفرن قبرك في مستنقع العار
قد كنت أدعوك محرابي وصومعتي فكيف خُنْت تسابيحي وأذكاري
وفيم تنتف ريشاتي وتُطْلِقُني مع الرياحِ وقد هَدَّمْت أوكاري
أنا اسْتَعَدْتك من قاعِ الضَّيَاعِ أنا مَسَحْتُ عنك جراحَ التِيهِ يا جَارِي
وكنتَ تلقى سريراً من نسيجِ دَمِي في كلّ حينٍ وتستلقي بأغواري
بل قد حملتك في أعناقِ أوردتي قِلَادَةً وجعلتُ الحبَّ أسوَارِي

* * *

وهو في الأبيات السابقة يفعل ما يفعله أغلب الشعراء، إذ يُذَكّرُ العادي بما قدمته له الكويت في أيام الرخاء والشدة، وكيف صنعت سريره من دمها، وانتشلته من قاع الضياع والتيه، ولكنه غادر أثيم ينكر الجميل، ويقابل الإحسان بأقسى وأفظع

درجات الإساءة، أنه يرمي الشعب الذي أحاطه بهالات الحب، ونسج فيه الأمل ضفائر، وصنع منه تمثالاً تتجسد فيه آمال العروبة، وخلع عليه الفروسية، وفي الثاني من أغسطس يفتح عينيه على صورة من صور الغدر فريدة، ومثل من أمثلة الجحود لا شبيه له ولا نظير.. إنه يعيد به زمن الجاهلية الأولى، ويتقهقر بالأمة إلى عصور القبيلة البغيضة، ولأن الشاعر ينتمي إلى هذه الأمة يحمل عار القبيلة على كتفه، وهو حمل ثقيل يتمنى لو وجد من يحمله عنه.

إن الأمة قد عقمت، ولم يعد فيها أولئك العظام الذين بنوا أمجادها، وجاء بعدهم من ارتدى ثوب الخزي والعار:

أين البهاليلُ، يا أماه قد خلعوا ... جِبَاهَهُم وارتدوا غيبوبةَ الْعَارِ
كلُّ الصقورِ تَخَلَّتْ عن قَوَادِمِهَا ... وهَا هِيَ الْيَومَ ـ خُنْثَى ـ دونَ مِنْقَارِ
حتى الحمامات ـ ياأماه في زمني ... باعت بكارتها و(المربدُ) الشاري

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحمامات التي يتحدّث عنهاالشاعر، هي التي كانت تَحْتَشِدُ فيما يسمى (بالمربد) والتي جندها الطاغوت لخدمة أغراضه وأهدافه، وجعلها تُسَبّحُ بحمده، وتخلع عليه ثياب البطولة، وتتغنى بمخازيه ومساوئه.

إن الشعراء والمثقفين الذين كانوا مجندين، اشتراهم الباغي بالمال الذي كان يغدقه عليهم، والليالي الحمراء التي كانوا يقضونها عنده، قد باعوا طهارتهم وبكارتهم، وقد كشف غزو الكويت عارهم كما كشف عار سيدهم، لقد أصيبوا بالخرس، لأنهم باعوا أنفسهم بثمن بخس.

ويعود أحمد غراب إلى العروبة، فيجدها أنثى بلا رحم، لقد أصبحت عقيماً لا تلد الأبطال، وأنّى يكون لها مثل المثنى، والمعتصم، إنها صورة بلا مضمون، وشكل ليس وراءه محتوى، إنها أمة لا تلد غير قاتليها:

عروبة اليوم أنثى ما لها رحم ... مثل السفين بلا مرسى ولا صاري
مات (المثنى) وما في الدرب رائحة ... من أي معتصم، أو طيف تذكارِ
ماذا أحدث يا أماه عن أفق ... يَغِيمُ لكن بلا بَرْقٍ وأمطارِ
لا تسأليني فنحن العقم يسكننا ... لأننا لم نعش إلا كأحجار
نطارد الحب دوماً كل آونة ... بِصَارِمٍ من سيوف الغدر بَتَّارِ

* * *

وعلى الرغم من ذلك لا يستسلم الشاعر لليأس، أو يهيل على أمته التراب، وينفض يده منها، فهو على العكس من ذلك يناديها للصحوة الكبرى، لتثأر من أولئك

الذين وقفوا أمام طموحاتها، وأسلموها للتشرذم والتشتت والضياع:

فيا قريش التي أمطرتها زمناً ... شعراً كأصفى مَرَايَا شَمْسِ أيَّارِ
قومي امتطي صهوةَ البركانِ غاضبةً ... خلفي وغَنّي معي أنشودَةِ الثَّارِ
لا ترتمي كنهودِ الصَّمْتِ سَيِّدَتِي ... وفي الكويتِ دمٌ يشكو إلى (الباري)
شعب وديع رَحىٰ الطغيان تسحقه ... فالأرضُ بِئْرُ جِرَاحَاتٍ وأوزارِ

* * *

ثم يأخذ أحمد غراب في الحديث عن معاناة الضعفاء في هذا البلد العربي الذي اغتالته يد الغدر والطغيان، وتنزف نفسه حسرات على ما أصاب الأطفال فيه من العنت والمشقة، وكيف تشرد الصغار الذين كانوا آمنين في كنف أهلهم وذويهم. وهو يشبه ولع المجرمين في دماء الكويت بما حدث لسيد الشهداء حمزة.. أو تظهر الكويت في دور حمزة، ويقوم الطغاة بدور «هند»، وهذا نوع من القناع التاريخي، ويستحضر الشاعر صورة أخرى من التاريخ القاسي على أمتنا، ويستعيرها للكويت، هي صورة ابن الزبير حينما صلبه الحجاج على الأعواد في مكة، ولم يرع حرمة الموت، أو حرمة السابقين إلى الإسلام من أهله .. فأبوه الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ـ ﷺ ـ وأحد السابقين المشهود له في الإسلام، وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين، وكل ذلك لم يحل بين الحجاج والتمثيل به وصلبه، والأمر يتكرر في الكويت.. ولأن الكويت عزيزة على الشاعر فهو يجعلها آية من مصحفه، وأنها تستجير به، وبكل المسلمين أن يهبوا من أجلها، كما يتنبأ الشاعر بالخلاص، فلن تظل الكويت في أسر الغادرين.. وإذا كانوا يمتلكون قوة، فإن قوة الحق أقوى وأعلى:

يا آية من حنايا مصحفي وثبتْ ... تشكو وتبكي على أكتاف أشعاري
أنت احتراقي وأحطابي وموقدتي ... وعنف أخيلتي الغضبىٰ وأفكاري
فارمي جراحك واستلقي بأشرعتي ... فلن يطول ببحر الحزن إبحاري
معي الرياح ومينائي على كتفي ... وفي يدي الموج والتيار تياري
غداً سترسو على الجودِي سفينتنا ... يزفنا الموج في طوفان أنوار
فلن تظل دماء (السّبْط) نازفة ... في كربلاء وفينا نبض أحرار

* * *

ومن المعلوم أن (السبط) هو الحسين ـ رضي الله عنه ـ الذي أسلمه المزايدون لعدوه وخذلوه في كربلاء، ثم راحوا يذرفون الدمع عليه.

ولئن كان ما حدث للكويت قد أدمى فؤاد الشاعر، فإن ما أصاب الأمة منه

أحدث أثره البالغ أيضاً، وهو لا يقل عما حدث للكويت وما سبب من أسى.

إن أمته أمة عجيبة، إنها تفتت قوتها، وتعمل على إفناء نفسها، إنها تعيش طيشاً عجيباً رغم زمانها الطويل، وتاريخها الدامي الذي لم تتعلم منه، ولم تَعِ درساً واحداً من دروسه القاسية على كثرتها.. وأمر هذه الأمة عجب، فهي من قرون لم تفرز سوى تلك الإفرازات المدمرة التي تساعد على فنائها.. وحالها يحزن الشاعر فيبكي عليها:

أبكي على أمة تقتات أذرعها ... وتستميت لكي تفني بإصرار
تلك العجوز التي لم تعترفْ أبداً ... بطيشها كفتاة ذات أطوار
ولم تلد من قرون غير قاتلها ... من كل ذئب طويل الناب غدار

ولا تقف غضبة أحمد غراب عند هذا الحد، فهو يحدثنا عن العائد من الطوفان، ذلك الذي حدث في غزو الكويت، ويبين من خلاله كيف جُلِدت العروبة في البصرة والجهراء وعمّان، وكيف لم يرحم الزبانية في (عمّان) ضحايا الجلاد الذين فروا يلتمسون النجاة.. إنهم رموز عربية كانت تبني الحياة والحضارة في كل مكان من هذا العالم العربي الجريح.. لقد مات الأسيوطي، وحمدان، ونفادي، وسملت عين هذا، وقطع لسان ذاك.. وحين فرّوا من الجحيم وجدوا جحيماً آخر في عمان، وسؤال يتردد عن «مسعود القطان» ولم يكن مسعود القطان إلا رمزاً من الرموز العربية التي ماتت في (الفاو)، انه ابن هذا الذي يَصْلَى جحيم الطغيان.. لقد نسي الطغاة ذلك الدم الذي أريق من أجل حياتهم.. وعندما يرد الأب قائلاً:

ولماذا تسأل؟ كان معي ... في (الفاو) ووارته النيران
أجهشت فدمدم في غضب ... لا تفتح أقبية الخذلان
الوطن الأكبر تبنيه ... أشلاء بواسلنا الشجعان
الوطن الأكبر وانغمدت ... في القلب سكاكين الأشجان
وهمست لدجلة ذاكرة ... لا يسكنها إلا النسيان
قتلوني مرات صفعاً ... ركلاً.. نهشوني كالعقبان

وينتهي من هذا المشهد بهذا التساؤل الأسيان:

أبكي مأساتي؟ أم أبكي ... زمناً موبوءاً بالطغيان
زمناً عربياً لحيته ... تقطر طيناً، تندى قطران

* * *

والعروبة عند أحمد غراب قبيلة، تسلك سلوك القبيلة، وتنهج نهجها في الإغارة على الأخ، وسلب ما في يده ناسية ما قدم الأخ لها، والجيل الذي ينتمي إليه الشاعر يعاني من تصرفات القبيلة وسلوكها، إنه جيل متعب، وُئدت الأحلام في عينيه، وعاش وهماً كبيراً، إنه جيل صلب بلا جريرة ارتكبها، ومن غير ذنب اقترفه، إنه الحلم الذي يبكي ويشرب دموعه.. الجيل الذي نُفِيَ من تاريخه، وأهين، ويريد منه السيد أن يكظم غيظه ولا ينطق.. إنه الجيل الذي عاش الزيف والأكاذيب، وَحُشِيَ عقله بالأوهام، والبطولات الكاذبة، وأُوهِمَ أن راياته سوف ترفع على القدس، وإذا به يصحو على مأساته الكبرى.. يقول في قصيدته «رسالة إلى خليفة بغداد»[١٨]:

أنا المنفي من صفحات تاريخي التي تنهبْ
أنا الجيل الذي يبكي ومن دمْعاته يشرب
أنا الجيل الذي يدمي ودون خطيئة يصلب
فيا مولاي هل تمشي على جرحي ولا أغضب
وهل أندس في صمتي وأنت بهامتي تلعب

* * *

سنينا أعبد الأشباح في أرض الخرافاتِ
وأرنو الزيف يثقبني ويلغي داخلي ذاتي
وريش كلامك القطني يمتص انفعالاتي
يخدّرني فأرمي في ضفاف الوهم مرساتي
فأحلم أنني في (القدس) أطفو بين راياتي
وأصحو ليس فوق يديّ غير وحول مأساتي

* * *

أما وحول هذه المأساة فلم تكن غير غزوه الآثم للكويت الذي يجلعها غادة حسناء وينسبها إلى أخيه. لقد ذبح هذه الغادة السمراء.. وراحت تتساءل لماذا يجزرني بسكينه المسموم، وأنا كسرت قبره العفن.. لماذا يصب السمّ في قدحي، وأنا التي أسقيته العذب الفرات، وداويت جراحاته.. إن سؤالها يمتلىء بالشجن.. لأن القبيلة تسلك هذا السلوك.. تقتل من يهب لها الحياة:

كويت الغادة السمراء بنت أخيك تخبرني
بأنك قد ذبحت بريق ضحكتها وتسألني
لماذا مَنْ كَسَرْتُ الثلجَ عنه بِقَبْرِهِ الْعَفِنِ
يصبُّ السمَّ في قَدَحي ويَدْفِنُنِي بِلاَ كَفَنِ

تسائلني وعيناها تواريخٌ من الشجن
لماذا في قبيلتنا يُجَازَي الحبُّ بالضَّغَنِ
لماذا في قريش الحلّ مغترب بلا وطن
لماذا نحن كالأحجار نحيا خارج الزمن

* * *

إن ما حدث جعل العروبة طفلاً يتعذب بتفاهتنا، وحمقنا، لقد غدونا سكيناً نقطعه ونتركه ضائعاً في التيه:

فأصرخ فيك يا مولاي يا صنماً عبدناهُ
وأحرقنا البخور له ونمنا عن خطاياهُ
عروبتنا غدت طفلاً كهوف الحزن سكناهُ
تعذبه تفاهتنا ويبلع جمر عيناهُ[١٩]
وكالقدّيس في نُبْل يباركنا ونعصاهُ
فكيف غدوت سكيناً تعربد في حناياهُ
وفيم سملت أعينه؟ وفيم قطعت يمناهُ
وفيم تركته في التيه نهراً ضاع مجراهُ

* * *

إن ما فعلت بالكويت هو عودة إلى الجاهلية، التي مثلت فيها دور أبي لهب، وزوجه حمالة الحطب.. إن الطلاء الكاذب الذي كنت تغطي به وجهك البشع قد ذاب، والقناع الذهبي الذي صنعه لك السامريّ قد انكشف.. وظهرت كاذباً فاجراً، ولن أخشاك، فافعل ما شئت.. فلن ينطلي زيفك على أحد بعد اليوم:

فيا من شدّ قرط الشمس من أذني بلا سبب
أتدري كم تمزقني شروخ جبينك الخشبي
لقد ذاب الطلاء، وماء وهْج قناعك الذهبي
فخذ رأسي بلا ثمن.. سئمت دعارة الكذب
كرهت بشاعة التجميل في (حمالة الحطب)
فجورك ردّ أيامي إلى دنيا (أبي لهب)
فأين نقاؤك الثوري؟ أين ضميرك العربي؟

* * *

ولعلنا نقف أمام الاستفهام في ختام هذا المقطع، الذي يتساءل فيه الشاعر عما كان يزعمه من النقاء الثوري.. ومن أنه ضمير هذه الأمة، وهو استفهام يتردد في

نظرنا بين التعجب من زعمه الكاذب، والنفي.. أي أنه لم يكن يحظى بما يسمى النقاء الثوري وأنه ما حمل يوماً الضمير العربي الذي ينفر من الغدر، ويجازي الإحسان بالإحسان، ويعرف حقوق الأخ، وكرامة الجوار، وربما يحل لنا ما يريد الشاعر من هذا الاستفهام ما جاء عنه في قصيدة أخرى عنوانها (أغنية على أوتار الجرح)[٢٠]:

سأقول إن ضميرك العربي نار مطفأةْ
نهر خؤون باع منبعه وضيع مرفأه
وأقول إنك في قريش الخيمة المتهرّأة
والهودج المقلوب والبئر الخواء الظامئة
أين العيون الحاضنات سنا النجوم الدافئة
أين الأنامل كالمرايا واليد المتلألئة
لقد استحال الطهر فيك وشاح ذكرى سيئة
لا تدهشي فنقاؤك الثوري بؤرة أوبئة
وبزوغك القومي سكين تسافر في رئة

* * *

إن الشعر ليعجز عن التعبير ـ هكذا ـ يرى أحمد غراب.. على الرغم مما قدّم، ذلك لأن الواقع العربي في نظره، أصبح ضائعاً. إنه كما يصور في مطلع القصيدة السابقة أشرعة لسفائن من الهوان، الريح تقذفها فتذهب هباء، أو هي كما يقول:

ماذا يقول الشاعر في هذا الزمانْ
حيث الثواني من فحيح والدقائق أفعوان
والواقع العربي أشرعة سفائنها الهوان
الريح تمضغها وتبصقها كخيط من دخان

و «علي الباز» يلتقي مع غازي القصيبي في الإحساس بالعار، لقد مرّ بنا كيف يواري غازي القصيبي وجهه من الخجل، في قوله:

سترت وجهي يا بغداد من خجلي وصحت قل يا فمي شعراً فلم يقلِ

و «علي الباز» يتعجب من العروبة، وكيف أضحت لوعة وأسى، كما يتعجب كيف باع الأعراب عروبتهم بلا ثمن، إنه يحس بالعار من انتسابه لهذه الأمة، ويتمنى لو استطاع أن يغيّر سحنته، وبدنه، ولغته.. إنه يريد أن يخرج من كل هذه الأمور التي تربطه بأمثال أولئك المجرمين الذين تآمروا على الماضي والحاضر والمستقبل، يقول

«علي الباز» في قصيدته «الصبح موعدنا»[٢١]:

يا للعروبة، أضحت لعنة وأسى ... بيعت، ويا خيبة الأعراب.. ما الثمنُ
بعنا العروبة، بدلنا الضمير ففي ... صدورنا اليوم شيء، واسمه العفن
أحس بالعار، أني يعربي فلو ... غيّرت جلدي، ولو لو يشترى بدن
أحس بالعار، لو غيرتها لغتي ... تلك الحروف التي بالزيف قد عجنوا
هويتي.. وجوازي فيهما صفتي ... في جنبه خنجر في رأسه وهن
طريقتي لثم أنف اليعربي أخي ... وخنجري قابع والغدر مختزن

* * *

أما العروبة عند «فاروق شوشة» فقد صارت بعد هذه الفعلة اللئيمة الآثمة أضحوكة الدنيا كلها، لقد جعلته المحنة في حيرة من أمره، لا يدري من أين تكون البداية، بعد أن انطفأت آمال الأمة، وكأن القدر قد كتب عليها أن تبقى في متاهات التاريخ ضائعة حائرة.

لقد أضاع الجيل عمره كاملاً في أحلام مهترئة، إن العروبة لا تُقَالُ من عَثْرَةٍ إلا لتقع في أخرى، وعدنا مرة أخرى إلى زمن (القبيلة) تفح ضغائننا، لا نجتمع على شيء، إلا وتفرقنا أشياء، وأصبح كل سعينا إلى الفرقة والتشتت والضياع. إن فاروق شوشة يحدثنا في قصيدته (البحث عن بداية)[٢٢]، عن السقوط، والهوة التي صرنا إليها، ويتساءل من أين تكون البداية:

من أي قاع سحيق سوف نبتدىء ... وكلما لاح نجم راح ينطفيء
العمر ضاع سدى، عمر بأكمله ... ونحن نلبس حلماً بات يهترىء
نستقرىء الغيب علّ الغيب يسعفنا ... ونستريح إلى السلوى ونتكيء
تقودنا عثرة حتى إذا اعتدلت ... أقدامنا خطوة عدنا فننكفيء
هذي القبيلة قد فحت ضغائنها ... فليس يجمعها ماء ولا كلأ
إن تسع يوماً ففي خلف وتفرقة ... وإن تسرْ فعلى أقدامها تطأ

* * *

ويسير (فاروق شوشة) في خط درامي متصاعد في قصيدته.. فأمة هذا شأنها، تحركها الضغائن والأحقاد، وتسعى إلى التفرقة والخلف.. ماذا سيكون مستقبلها؟ أتفنى هذه الأمة، وتصبح عبرة لغيرها، وهل الاستفهام الذي يسوقه الشاعر في قوله:

هل يكتب الدهر عنهم أنهم وئدوا ... أو أنهم بعثروا في التيه واختبأوا

وأنـهـم ذات يـوم هـا هـنـا عـبـروا عـلـى الـرمـال ويـومـاً هـا هـنـا طـرأوا

نوع من استنهاض الهمم والعزائم لرقع الخرق، وإن كان واسعاً، أم أنها وصف لحالة الأمة وتنبؤ بما سيكون عليه حالها، إن هي ظلت تسير في هذا الطريق.. إن قراءة التاريخ تجعلنا نزعم أن الشاعر يحذر من المصير الأليم، فما من قوم تشرذموا وخربوا بيوتهم بأيديهم إلا انتظرهم الضياع والتيه، ويجعلنا نميل إلى أن الشاعر يستنهض الهمم وينبه إلى الخطر كما يسوقه بعد ذلك في قوله:

الـلـه فـي هـمـم بـاتـت مـضـيـعـة وفـي نـفـوس عـرا جـدرانـهـا الـصـدأ

كما يدفعنا إلى هذا الاعتقاد ما يتمناه الشاعر من قراءة هؤلاء لتاريخهم، وما يذخر به من صفحات بيضاء وأمجاد عظيمة.

إن فاروق شوشة يرى الأمة تنحو غير المنحى الذي يسير عليه غيرها من الأمم، فبينما الأمم الأخرى تحاول أن تظهر أمام غيرها في صورة حسنة، إذا بنا نكشف عن سؤاتنا وعيوبنا، ونظهر أمام الناس في صورة مخجلة، وذلك كله يحدث على الرغم من وضوح الطريق.

ويتعرض فاروق شوشة في هذه القصيدة إلى كشف عار وقع فيه كثير ممن يدعي الثقافة، فقد كان الغادر يحشدهم فيما يسمى بـ «المربد» يكيلون له المديح، ويرسمون له صور الفارس العظيم الذي كانت تنتظره الأمة وتحلم به، لكن قصائد النفاق التي رفعوا بها «هولاكو» سوف تبقى سبة في تاريخ الشعر.. وستظل عاراً يحيط بأولئك الذين قاموا به، يقول فاروق شوشة:

في معرض الكون يجلو الناس صورتهم ونـحـن يـأسـى عـلـى مـأسـاتـنـا الـمـلأ
كانوا فحولاً فغاصوا في مضاجعهم وكـلـمـا أخـذتـهـم رجـفـة قُـمـؤوا

ثم يخاطب (المربد):

يا أيها المربد المحزون كم حشدوا مـن حـول نـارك.. مـا كـلّـوا ولا هـدأوا
كانت زمازمهم في الساح واحدة مـكـرورة الـلـحـن تـنـهـيـهـا لـيـبـتـدئـوا
بـأي خـزي ووجـه شـائـه ويـد شـلاء تـسـتـقـبـل الـشـعـر الـذي عـبـأوا
هذي القصائد عار الشعر فوقهمو فـلـيـت أنـهـمُ مـن عـارهـم بـرئـوا
هذي الحناجر كم ضجت وكم هتفت لـيـسـتـريـح عـلـى أنـفـاسـنـا وبـأ
انظر إلى حالهم تلق الذين أتوا يـومـاً إلـيـك بـهـذا الـشـعـر قـد هـزئـوا
في ذمة الله والتاريخ ما كتبوا في ذمة الحق والأرحام ما اجترءوا

ثم يختتم فاروق شوشة هذه القصيدة بالإشارة إلى أن هذا الدعي وزمرته يقطعون أوصال الأمة، ويزعمون أنهم يحسنون صنعاً، وهو يتساءل: كيف يدعي هذا المتجبر أنه يقيم العدل، وهو يعاديه، ويزعم أنه يطلب الحق، وهو يفتئت عليه:

يا من تقطع في أوصال أمتنا وأنت تمعن في نهب وتدّرىء
من كان يعشق عدلاً كيف يصلبه أو كان يطلب حقاً كيف يجتزىء

* * *

وفي قصيدته «مملكة الفسق»[٢٣]، والتي يشير عنوانها إلى المعتدين، نرى فاروق شوشة يتحدث عن ضياع العقل، والأمة التي تعرت، وأصبح مكانها خارج السباق، والسياق، وظهر أمام الدنيا كلها وجهنا القبيح، وليس في طاقتنا أن نخفي هذا القبح أو نداريه عن الأعين المحدقة فينا، والتي تعلوها الدهشة، إن البطل الفارس الذي رسمه زيفنا، وخيالنا المريض، قد كشفت الحقيقة عن أنه لص، وقاطع طريق مأجور، تآمر على هذه الأمة، ومزّق وحدتها:

الآن هل يفيد العقل
الجنون حكمة
والموقف الحصين في حسبانهم نزق
ونحن مقذوفون في العراء
ليس في خارطة الدنيا مكاننا
ندور خارج السياق
والسباق دوننا انطلق
بأي وجه نستر الوجه الدميم المحترق
ونغفر البغي القبيح المختلق
من قبل أن تزلزل الدنيا
ويعتم الأفق
وتستوي مملكة الغسق

* * *

وفي قصيدة (أغنية العودة)[٢٤] التي يهديها ياسين الفيل إلى أبناء الكويت وهم يعودون إلى وطنهم يحدثنا عن العروبة أيضاً، ويبين أن تلك الأمة كتب عليها أن ترتد سهامها إليها على يد أولئك الذين أفرزتهم السياسة الموبوءة. يقول:

قدر العروبة أن خير سهامها إن أطلقته فللصدور يعود

بالغدر نحرقها ونهتف أننا بالروح بالدم بالحياة نجود

وهكذا يكشف الشاعر الزيف والتناقض بين الأقوال والأفعال.

* * *

أما ابن فلسطين، الذي اختار أن يمهر قصيدته على هذا النحو، ولا ندري هل أخفى اسمه، لأنه كان يقف في مواجهة تيار من المغرر بهم من أبناء فلسطين، الذين انطلت عليهم الأكاذيب، وسكنوا لطوفان الزيف، وظنوا مسيلمة الكذاب يحدثهم بالصدق، فأصابهم الخدر، أو أن الشاعر أراد أن يقول لهؤلاء إن ابن فلسطين الحقيقي يعرف من معه ومن يزايد، ومن احتضنه، وأشعره بدفء الوطن، ومن حشا عقله بالسراب والأوهام، على أية حال إن الشاعر الذي اكتفى بذكر ابن فلسطين يحدثنا في قصيدته عن فساد السفاح، وضلاله وهزائمه السابقة في إيران. وينتقل إلى الحديث عن انعكاسات فعلته الشنعاء على قضية فلسطين والانتفاضة الباسلة:

وعدت بأن إسرائيل تفنى وتلك وعودكم صارت سرابا
وعدت القدس والأهلين خيراً ولكن زادت القدس اكتئابا
خذلت «الانتفاضة» في ذراها ومن خذل الصغار فما أصابا
وقد هيأت إسرائيل عذراً لكي تزداد للأقصى استلابا
إذا شامير سام الأهل خسفاً فلن يلقى الملام ولن يعابا

* * *

ويطول بنا الحديث لو رحنا نستعرض قصائد الشعراء واحدة واحدة، وبخاصة أن المعاني التي تحدث فيها الشعراء لا تخرج عن الأمور التي تمت الإشارة إليها، وإن اختلف المبدعون في طرق التناول، إننا نصادف من يعبر عن هذا العمل بأنه وصمة عار في التاريخ العربي[٢٥]:

يا وصمة العار في تاريخنا العربي تبت يداك عدو الدين والعرب

وكيف أن عمله خيانة للعرب، وهدم لأساس الوحدة بينهم

خانوا العروبة هدّوا أس وحدتها يا ويحهم قد أضاعوا كل مكتسب

وهو قد داس أسس التضامن العربي، واستباح الحمي:

ودعا لوحدة أمة وهو الذي داس التضامن واستباح وأرعبا

* * *

وأختم هذه الصفحات بقصيدة نزار قباني (هوامش على دفتر الهزيمة (١٩٦٧ـ

١٩٩١ م)، ذلك لأنه لا يحق لمن يؤرخ للشعر في محنة الكويت أن يغض الطرف عن شاعر كبير في منزلة نزار قباني، لأن الشاعر طالما تأرجح بين المديح والغزل في مثل طاووس العراق، وقصائده في تمجيده لا تخطئها العين، كما أنه في كل موقعة يحمل الأمة أوزار أولئك الذين تسلطوا على مقدراتها، وعبثوا بكل عظيم من قيمها..

إن «نزار قباني» واحد من الشعراء الذين ألّهوا الطاغية، وصوره في صورة البطل المنقذ، فهو صلاح الدين الذي سيحقق وحدة الأمة، ويحرر ترابها، وهو سعد بن أبي وقاص بطل القادسية. لقد تعودنا أن نجد شاعرنا الكبير في الأفراح والجنازات، كما نراه يتصدر الاحتفالات الكبرى كاحتفالات (المربد) المشبوهة، وما دمنا في جنازة فعلينا أن نتوقع إحدى آبدات شاعرنا الكبير.

لكن الأمر الذي يدعو للدهشة، أن هذه القصيدة على طولها وكثرة مقاطعها، لا يشير فيها الشاعر إلى الكويت وما حدث لها بكلمة واحدة، وإن كان يتحدث عن حرب الخليج، وكأن هذه الحرب كانت نبتاً شيطانياً، ولم يكن ثمة سبب لها، وهذه الحرب أفرزت هزيمة لنا ككل الهزائم، ونزار قباني بهذا القول يتحدث بلسان أولئك الذين تجاهلوا غزو النظام العراقي للكويت، وراحو يتحدثون عن مؤامرة تحاك للعرب، وجيوش معتدية جاءت لتقضي على القوة العربية، وتئد طموحات العرب.

وأياً كانت وجهة نظر نزار قباني، فإن قصيدته تتحدث بنفس الأسلوب، وربما بنفس العبارات التي رأيناها في القصيدة التي أنشأها في سنة ١٩٦٧ م بعد الهزيمة التي منيت بها الأمة العربية، وربما أدرك بذكائه أنه يردد نفس العبارات والمقولات، فجاء بنفس العنوان أو قريباً منه.

ويزعم في قصيدته الجديدة أننا لا نحسن الحرب، ولا نحسن السلام، وأننا في تاريخنا لم ننتصر على ذبابة، وهذا زعم كاذب، وخالد وطارق، وعقبة وحمزة، وغيرهما من الأبطال ليسوا ـ كما قال ـ مكدسين في علب الأفلام، وذلك حين يقول:

لم ننتصر يوماً على ذبابة
لكنها تجارة الأوهام
فخالد وطارق وحمزة
وعقبة بن نافع
والزبر، والقعقاع، والصمصام
مكدسون كلهم
في علب الأفلام

وبدلاً من أن يشير نزار قباني بأصابع الاتهام إلى المجرم الحقيقي، يأتي به في

جموع من المشتبه فيهم، فربما ضل عنه الناس أثناء العرض..

وإذا كان لنا أن نشير إلى بعض الإيجابيات التي جاءت في قصيدة نزار قباني، فإننا نشير إلى ما قال من أن هذه الأمة يأتيها كل عشرين سنة أفاك كاذب يزعم أنه سيخلصها من محنتها، وإذا هو محنة جديدة تضاف إلى محنها، إنه يزعم أنه جاء ليحقق الوحدة، لكنه يذبحها:

في كل عشرين سنةْ
يأتي إلينا رجل مسلح
ليذبح الوحدة في سريرها
ويجهض الأحلام

فالحق أن الأمة نكبت بأصحاب الخوذات أكثر مما نكبت من أعدائها، وقد آن للأمة أن تقف في وجه هذه اللعبة السخيفة، فأي من أولئك الذين قادوا دباباتهم، واستولوا على الحكم، لم يأت لهذه الأمة إلا بكارثة.. لقد خلعوا على أنفسهم الرتب والألقاب، وشارك بعضهم من أمثال (صدام) الله في أسمائه، لكنه لم يعشق إلا ذاته. يقول:

في كل عشرين سنة
يأتي إلينا نرجسي عاشق لذاته
ليدعي بأنه المهدي، والمنقذ
والنقي التقي، والقوي
والواحد والخالد..

ومما يحمد لنزار قباني في قصيدته، أنه يعرى فيها مواقف الكتّاب، أولاً لأنهم رضوا أن يدجنوا أو ـ كما يقول ـ:

إن رضي الكاتب أن يكن مرة
دجاجة
تعاشر الديوك، أو تبيض أو تنام
فاقرأ على الدنيا السلام

وقد رضي الكتاب، أو من يسمون بالمثقفين هذا الأمر، فقد صنعوا من الأصنام آلهة عبدوها وسبحوا باسمها، فكانت هذه الأصنام وبالاً على الأمة.. إن موقف المثقفين من الأنظمة الفاسدة وصمة عار في جبين الأمة.

وهؤلاء الأدباء، لهم كما يقول نقابة.. لكنها كنقابة الأغنام، أي أن هؤلاء لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً:

للأدباء عندنا نقابة رسميّة
تشبه في تشكيلها
نقابة الأغنام

ويحدثنا نزار قباني في هوامش على دفتر الهزيمة عن خناجر العروبة التي تقاطعت في لحومنا، لقد أدمنّا قتل أنفسنا بحناجرنا.. وأصبحنا نعيش في حالة من الانفصام لا نجد من يخرجنا منها، فنحن نلعق مرارة الهزيمة، ونكتوي بنارها، والقائد لا يحس بشيء، إنه يدخل بعد نصره الكاذب غرفة الحمام، نحن نموت كما يموت الذباب، والقائد يزهو بشاراته:

نموت مقهورين منبوذين
ملعونين منسيين كالكلاب
والقائد السادي في مخبئه
يفلسف الخراب

وينتقل إلى ما يطلق عليه «معركة الخليج» وهو كما سبقت الإشارة يتناولها من زاوية مختلفة وبعيدة عن فهم كثير من الناس، لكنه يسخر مما قيل حولها، ومن الشعارات الجوفاء التي أطلقت فيها إنها كما يقول:

مضحكة مبكية
معركة الخليج
فلا النصال انكسرت فيها على النصال
ولا الرجال نازلوا الرجال
ولا رأينا مرة
أشور بانيبال
فكل ما تبقى لمتحف التاريخ
أهرام من النعال

كما يسخر الشاعر من مزاعم الانتصار الكاذبة التي يرددها المهزومون في كل وقت، بينما أجهزة الإعلام تفضح زيفهم، وتنشر الصور المخزية عن جنودهم، يقول:

من الذي ينقذنا من حالة الفصام
من الذي يقنعنا بأننا لم ننهزم
ونحن كل ليلة
نرى على الشاشات جيشنا جائعاً
وعارياً

يشحذ من خنادق الأعداء

«ساندويتشه»

وينحني كي يلثم الأقدام

أن الشاعر حزين على ما حدث.. فجيشه مهزوم، يشحذ من خنادق الأعداء، وهذا يكشف عن الموقع الذي يقف فيه الشاعر، ويبين رأيه في كل ما حدث.

ونختم الحديث حول موقف نزار قباني بما قرره من إدانة صريحة للشعب الذي أله الصنم، وأقام له غابات من الأصنام:

هم يقطعون النخل في بلادنا
ليزرعوا مكانه
للسيد الرئيس غاباتٌ من الأصنام
لم يطلب الخالق من عباده
أن ينحتوا يوماً له
مليون تمثال من الرخام

* * *

القيم الفنية

بعد أن عرضنا للشعر الذي صوّر محنة العروبة في غزو العراق لدولة الكويت، نلقي شيئاً من الضوء على القيم الفنية لهذا الشعر. وقد لاحظنا تنوع الشعر الذي عبّر عن هذه المحنة، سواء من حيث الأفكار التي عرض لها الشعراء في قصائدهم، أو من حيث الصيغ الفنية والقوالب التي عبروا من خلالها. ففي الوقت الذي نجد فيه شعراء الكويت يؤكدون على جانب الصمود والتصدي للعدوان، وحتمية دحره، وعودة الكويت إلى سابق عهدها تسهم في الحضارة العربية والإنسانية، ويؤكدون أيضاً على الدور الذي قامت به الكويت من أجل الحاضر العربي، وكيف وقفت إلى جانب العراق في محنته. نجد غيرهم من الشعراء يعبرون عن جوانب أخرى. وفيما مضى رأينا الآثار السلبية التي جنى بها الغزو على مسيرة العمل العربي، فأصيب بالشلل، وتردّت الأمة في هوة سحيقة.

ولما كانت العاطفة هي العنصر الأول من عناصر الشعر، إذ أن منزع الشعر من الشعور، وأنه يكون تعبيراً عن الانفعال بالأحداث، ويتخذ من العناصر الأخرى، والوسائل الفنية المختلفة أدوات لتصوير هذا الانفعال والتأثير فيه. فإننا نبدأ بالحديث عن العاطفة التي صدر عنها هذا الشعر.

وليس من الصعب على من يدرس هذا الشعر أن يحدد نوع العاطفة التي أملته، إنها عاطفة الغضب من هذه الفعلة، وشجبها والتصدي لها. ولئن كانت القصائد التي عبّرت عن هذه المحنة تتخذ مسارات مختلفة، فإنها جميعاً تلتقي عند هذه العاطفة الغاضبة التي ترفض الفعل وآثاره، وتكشف الألم الذي أصاب الأمة كلها بسببه، إن نقمة الشعراء على أولئك الذين أعانوهم، ثم وجدوهم ينقلبون عليهم تتضح بجلاء في هذا الشعر، وبخاصة عند أبناء الكويت الذين تلونت عاطفتهم بالحزن والغضب والدهشة. وتتسم العاطفة التي صدر عنها هذا الشعر بالقوة، فلا نجد فيها أثرا للافتعال، بل هي جميعاً تصدر عن عاطفة صادقة، تجعل قارىء الشعر يحس بالفاجعة، ويتألم لها. كما أن العاطفة تستمر في قصائد الشعراء، بل أكثر من هذا تظل على قوتها عند الشعراء الذين عبروا عن عاطفتهم في أكثر من قصيدة، كما هو الحال عند خليفة الوقيان، وفاروق شوشة، وعبد الله العتيبي، وغازي القصيبي، وغيرهم، ولعل مرجع صدق العاطفة في هذا الشعر إلى ارتباط عدد كبير من الشعراء بالكويت، ثقافياً واجتماعياً، أو لأن الشعراء من أبنائها، أو للحس القومي.

وإذا كانت العاطفة لا تستقيم من غير الفكرة التي تكون وعاء لها، والعبارة التي تحملها، كما أنها تتأثر بالقالب الموسيقي. فإننا نتناول هذه العناصر:

فمن حيث الأفكار، بيّنا خلال البحث، كيف عبّر الشعراء عن محنة العروبة، وكيف تنوعت أفكارهم ومعانيهم في هذا الاتجاه. لكن الأمر لا يقف عند هذه الجزئية. فالشعراء من أبناء الكويت يلحون على الغدر الذي حدث ممن وقفوا إلى جوارهم، وساندوهم في محنتهم، ولهذا كانت صدمتهم كبيرة. وهم من جانب آخر يصورون جمال بلادهم، وكيف كانت تمثل الأمن والأمان لكثير من أولئك الذين عاشوا على أرضها. إن من شعراء الكويت من يصور الغزو الأثيم على أنه موت للعراق ذاته على نحو ما نجد في قصيدة «عدنان الشايجي» التي عنوانها «أين المروءة»[٢٦]، وفيها يقول:

يا شمس مدّي ذراع الضوء وانتحبي ... مات العراق بأي الشعر نرثيه

مات العراق فلا وجه نطالعه ... إلا وفيه من الأيام ما فيه

مات العراق وللتاريخ ذاكرة ... إن العراق غزا من كان يحميه

* * *

وأياً كانت المعاني والأفكار التي تناولها الشعراء، فإنها تجمع على إدانة العدوان، واستنكاره وتأسى لما أصاب الأمة كلها بسببه، إن بعض الشعراء يشعر بالخجل لانتمائه إلى أمة تأكل نفسها، أو تلد جلاديها، ولا يحيد عن هذا الاتجاه غير قصيدة نزار قباني، على نحو ما أشرت عند تناولها.

وقد يظن بعض الناس أن المعنى لا قيمة له في الشعر، مستنداً إلى ما صدر عن الجاحظ من القول بأن المعاني مطروحة في الطريق[٢٧].. الخ. والحق أن هذا الفريق لم يفهم ما قصد إليه الجاحظ. فقد أراد أن يقف أمام التيار المغالي في قيمة المعنى على حساب العناصر الأخرى التي هي أمسُّ رحماً بالفن، كاستخدام اللغة على نحو خاص، واستغلال الطاقات التعبيرية لها. إن المعنى قد يدور في أذهان كثير من الناس الذين يختلف مستواهم الثقافي والفكري. لكن ذلك لا يسلكهم في عداد الشعراء. إذ لا بد من أن يأتي هذا المعنى على نحو خاص، فالعبرة باختيار اللفظ وجودة السبك، وسهولة المخرج. وهو بهذا يخرج من الشعر ما كان نظماً. ولعل هذا يسلمنا إلى الحديث عن عنصر آخر من العناصر الشعرية، وهو اللغة التي يعبر الشعراء بها. ولئن كانت اللغة تستخدم الألفاظ في قضاء المصالح والحاجات، فإنها تختلف من حيث الاستعمال، إنها تخضع للتصرف الذي تبيحه قوانين اللغة، وتخضع لاختيار الوجه المناسب للتعبير، وفيها يتم التجوز والنقل، وذلك يؤدي إلى أن تتحول اللغة إلى وسائل تصويرية، وتثير بفضل صياغتها وتراكيبها مشاعر المتلقي وانفعالاته. واستخدام اللغة على هذا النحو الجمالي، يجعلها تعبر عن معانٍ وتثير دلالات لا تكون لها في أصل وضعها، وتتولد من هذه الدلالات دلالات أخرى، توصلنا إلى الغرض الذي يسعى إليه الشاعر، ولهذا فإن إهمال اللغة عند تناول الشعر بالدراسة، أو التقليل من شأنها يعدّ تقصيراً شديداً في تناول أهم الوسائل.

إن النقد الأدبي في نظرنا، لا بد أن يوجه اهتمامه إلى الغاية أو الغرض الذي سعى الشاعر إلى تحقيقه، ولا بد من اختيار الوسائل الفنية التي استخدمها من أجل الوصول إليه ومعرفة مدى النجاح الذي حققه أو الإخفاق الذي وقع فيه.

وأُولى الوسائل وأهمها في التشكيل الأدبي، هي اللغة. وحين ننظر إلى اللغة التي استخدمها الشعراء في قصائدهم، نجد عدداً كبيراً منهم يميل إلى اللغة التقريرية، وينزع في تعبيره منزعاً خطابياً، بقصد التأثير في المتلقي، وهذا الفريق من الشعراء يميل إلى قوة الجرس، وهندسة العبارة، ويظهر ذلك بوضوح في شعر «السقاف» وجويدة، وأحمد غراب. ولكن يفتقد جانب كبير من هذا الشعر إلى اللغة التصويرية.

ويمكننا أن نميز بين لغة الشعراء الذين استخدموا القالب الشعري الموروث، والتزموا بعروض الشعر العربي، والذين استخدموا القالب الحر، فقد انحاز الفريق الأول إلى جانب جزالة الألفاظ وقوتها، وحسن العبارة، وظهور الغرض الذي يعبرون

عنه من خلال الشعر، بينما مال الفريق الآخر إلى الغموض، على نحو ما سنجد في قصيدة «علي البطل»[٢٨].

وفيما يتعلق بالخيال، وبناء الصور، نجد كثيراً من الصور التي استخدمها الشعراء تندرج تحت الخيال التأليفي، فلا نجد فيها صورة الموقف، إلا في قصائد قليلة، فأغلب الصور في قصائد الشعراء، تقوم على الصور البيانية، كالتشبيه والاستعارة أو الصور المجازية بصفة عامة، وإن غابت العلاقة أو كادت من نماذج الشعر الذي ينتمي إلى شعر التفعيلة.

وليس معنى ذلك أنه لا توجد نماذج من الشعر تصور مواقف نفسية أو حسية فربما اعتمدت على هذه الصور بعض القصائد، وذلك على نحو ما نجد في قصيدة «جنة القريني» التي تتناول فيها الحادث المشؤوم يوماً يوماً، وهي القصيدة التي عنوانها «شمس أخرى» ونشير إلى المقطع الأول منها[٢٩]:

في الثاني من آب الأسود
فقأوا شمسي
لم يطلع وجه الصبح
على نافذتي
لم تطرق أمي باب الحلم
تناديني
وأنا في الغرفة أنتظر
بين الصحو
وبين الوسن
جاوزت السابعة صباحاً
إذ صاح مذيع معروف
يا أهل الديرة
ديرتكم في الأسر تناديكم
هبوا

ففي أكثر من مقطع في القصيدة، نجد تصوير موقف، ومن المواقف المتوالية تأتي الصورة الكلية التي ترسم ما أصاب الكويت وأهلها:

كيف تقطر
سمٌ أحمر

سرقت لقمتنا
ضحكتنا
حرقت أحلام شقاوتنا
أقلاماً كانت ترسمنا
ودفاتر عمر مخبوء بمدارسنا
كيف تقطر
موتًا أصفر
جزت أعناق حمائمنا
خنقت أشواقًا
وارثْ أحداقًا
عند بيوت الصبر
تروعنا

ولا يعوز التصوير قصائد أخرى من أمثال قصيدة علي البطل «تدور الأرض»[٣٠] وهي من تجارب الشعر الجديد التي تتسم بالعمق في التصوير والرمز والتعبير، وتجنح مثل كثير من نماذج الشعر الجديد إلى الغموض، وبخاصة في بعض الصور المجازية التي تضفي على الأشياء صفات ليست لها. وقد تبدو بعض الصور لا رابط بينها، ويكفي أن نجتزىء منها هذا المقطع:

الشراع الذي عاند الريح، فانشق يطفو
على جسد البحر
في خجل أبيض لا يبين
البحر والريح ضدك يا مريم العاشقة
من بحة «اليامال» يتدفق السواد دمًّا
وينطلق الحمام محلقاً بعيون غواصين عاش
البحر في أحلامهم برداً وإظلاماً
وأشباح الأحبة بين أشداق الجراجير
المدومة الخثون
يا مال يا مال

* * *

ومن التجارب الجديدة التي يغلب عليها التعبير بالصورة قصيدة خليفة الوقيان «برقيات كويتية»[٣١]، إلا أن التصوير فيها أوضح، فليس فيها ميل إلى الإغراب، وهي

تميل إلى الإيجاز، كما هو الشأن في «البرقيات»:

أيها القادمون من الليل
إن حوافرَ خيلكم
تطفيء الآن ومض الشموع
تجز الضلوع

تلك برقية تحمل في إيجازها صورة لما فعله الغزاة، كما تحمل التنديد والإدانة ونلاحظ الوقوع في بعض الأخطاء اللغوية على نحو ما جاء في قصيدة:

تعذبه تفاهتنا ويبلع جمر عيناه[٣٢]

والصحيح عينيه، وإن كان بعض النحاة يذهب إلى صحة مجيء المثنى بالألف في كل حال، لكن هذا القول مردود، وقد لجأ إليه بعض النحاة للخروج من المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه عند قراءتهم لقوله تعالى: ﴿**إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما**﴾..

وأرى أن الآية جاءت على هذا النحو لتحقيق التناسب، وهو غاية جمالية يمكن التسامح في القاعدة المشهورة من أجلها. وقد قرر الدكتور محمد مندور، «أن كبار الأدباء يباح لهم الخروج على المألوف من القواعد، لأنهم حين يخرجون يعرفون لماذا يخرجون» وقد استدرك أحد الباحثين على الدكتور مندور[٣٣].

كما أن التزام بعض الشعراء بموسيقى البحر الشعري يجعل شعرهم يفتقر إلى قوة الربط بين أجزائه، وكأن كل شطر منه يستقل بمعناه، ولعل أصحاب هذا النوع من الشعر لا يزالون ينظرون إلى وحدة البيت واستقلاله بمعناه، كما جاء في قصيدة «بغداد ثوري» في قول صاحبها:

بغداد ثوري على الطغيان لا تدعي صدامُ إلا وجرح القيد يدميه
أذل أبناءكَ الأحرار في زمن كل الشعوب تنادت كي تقاضيه

فكلمة «صدام» منصوبة لأنها مفعول به وأبناءكِ. الصواب أبناءَكَ، ونلاحظ أن الشطر الثاني في البيت الثاني لا يرتبط بالشطر الأول. كما نلاحظ كثرة أخطاء الطباعة في الشعر مما يستدعي إعادة النظر فيه وتصويبه.

* * *

وبعد: فلست أزعم الإحاطة بهذا الكم الكبير من قصائد الشعراء، كما لا أدعي استقصاء كل ما جاء فيها من قيم فنية وموضوعية. فتلك أمور تقتضي وقتاً أطول وجهداً أكبر، وحسبي أن ألقيت ضوءاً على الفكرة التي اتخذتها موضوعاً لهذا البحث.

الهوامش والمراجع

(١) الجاحظ: **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، ج ٣، ص ٢٧.
(٢) **الكويت في عيون الشعراء**، منشورات المركز الكويتي بالقاهرة ص ٣١٨.
(٣) **جريدة الرياض**، ١٥/١٠/١٩٩٠ م.
(٤) الكويت في عيون الشعراء، ص ٨٦.
(٥) ملحمة الإصرار، (مخطوطة).
(٦) **الراية القطرية**، ٢٥/١٠/٩٠ .
(٧) الكويت في عيون الشعراء، ص ٩٢.
(٨) الكويت في عيون الشعراء، ص ٩٤.
(٩) الكويت في عيون الشعراء، ص ٦٦ـ ٦٧.
(١٠) الكويت في عيون الشعراء، ص ٣٢٧.
(١١) قالت البيت إحدى الخوارج وفيه تهاجم الحجاج بن يوسف الثقفي.
(١٢) الكويت في عيون الشعراء، ص ٣٣٠.
(١٣) الكويت في عيون الشعراء، ص ٣٣٢.
(١٤) الكويت في عيون الشعراء، ص ٣١٣.
(١٥) الكويت في عيون الشعراء، ص ٣١٥.
(١٦) الكويت في عيون الشعراء، ص ٣٢٥.
(١٧) الكويت في عيون الشعراء، ص ١١٤.
(١٨) الكويت في عيون الشعراء، ص ١٠٧.
(١٩) صحة العبارة: جمر عينيه، وقد ألجأته القافية إلى هذا.
(٢٠) الكويت في عيون الشعراء، ص ١٠٠.
(٢١) الكويت في عيون الشعراء، ص ٢٩٠.
(٢٢) الكويت في عيون الشعراء، ص ٣٣٤.
(٢٣) السابق، ص ٣٣٦.
(٢٤) كانت إحدى قصيدتين نالتا جائزة البابطين نشرت ضمن كتاب : الكويت في عيون الشعراء.
(٢٥) الكويت في عيون الشعراء، ص ٢٧٦.
(٢٦) الكويت في عيون الشعراء، ص ٢٧٩.
(٢٧) الحيوان، ج ٣، ص ٢٧.
(٢٨) د. محمد مندور: **في الأدب والنقد**، القاهرة: دار نهضة مصر، ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(٢٩) الكويت في عيون الشعراء، ص ١٤٨ .
(٣٠) الكويت في عيون الشعراء، ص ٢٩٢.
(٣١) الكويت في عيون الشعراء، ص ١٨٦.
(٣٢) الكويت في عيون الشعراء، ص ١٠٧.
(٣٣) الفصاحة: مفهومها، بم تتحقق: قيمها الجمالية ـ **حولية كلية الآداب** ـ الكويت، الحولية السادسة، الرسالة السابعة والعشرون.

* * *